# مقدمة

يوم كانت الهمّة تامة لم تنحت منها السنون بعد: كنتُ أجمع بعض إخوانى الدعاة فى جامعة بغداد، بعدد قليل دون العشرين كل أسبوعين، لنقوم الليل ونتلو القرآن، مع درس دعوى وموعظة مناسبة، ولأن الرقابة كانت هاجسنا: فإنا كنا نتجاوز المساجد الظاهرة العامرة إلى مسجد عتيق رطب عريض الجدران واطئ الطاقات والأقواس، بالى الفراش، فى زقاق ضيق قديم، يسمى «مسجد حسين باشا»، وهو الوالى العثمانى الذى بناه قبل أربعمائة سنة تقريبا، ويبدو أن يد الصيانة لم تمتد إليه آنذاك، فكان التلف ظاهرًا فى أكثر أرجائه، والجص قد سقط من بعض حيطانه.

لكن أولئك المائة الروّاد الذين كانوا يتناوبون الحضور أفواجًا صدورا عن إجماع جازم أنهم لم يروا مكانًا تتجلى فيه البركة الربانية ظاهرة كمثل حَرَم ذاك المسجد، وكان أى مشارك يحسّ بروحانية عميقة تحت تلك الأقواس، ويشعر بشعور خاص إذ هو بين تلك الجدران الهرمة يفوق تأثير الموعظة، ويضاعف إخبات القلوب الذى يولده التهجد والتغنى بالآى، حتى إذا حَكَمَ وقت آذان الفجر: تصدى لرفع الأذان الحاج أحمد رحمه الله، مختار حى الحيدرخانة الذى يقع المسجد فيه، وكان رجلا ميسورًا لكنه يسكن غرفة فى المسجد تطل على ساحة واسعة، فكان إجماع من إخوانى أنهم لم يسمعوا أبدًا أذانًا جميلا آسرًا مُطربًا كمثل أذانه، وكان عادل الشويخ يقول: يصح البيات فى المسجد ثمنًا لسماع ذلك الأذان، وأنا أشهد بما شهد به رحمه الله: أنى حتى الآن وأنا فى الرابعة والستين ما أتلذذ بسماع نغمات أذان تدق أبواب القلب دقًّا كنغماته، وآثار أذانه فى نفوس أولئك الدعاة تعدل ما يرجعون به من آثار التلاوة والتهجد.

وتفسير هاتين الظاهرتين عندى ــ والله أعلم ــ: أن هذا المسجد العتيق قد بناه صاحبه بنيّة خالصة، ثم تتابعت أجيال كثيرة من المؤمنين تصلى فيه وتدعو، حباه الله تعالى ببركة خاصة ميّزته عن مساجد أخرى، ثم يبدو أن هذا المؤذن الذى هو ليس بأجير كان على شعبة من الإخلاص واقتراف الحسنات، فأودع الله عز وجل فى صوته تلك العذوبة والقوة التأثيرية.

وإنما أردت من سرد هذه القصة أن تكون مدخلاً لمعنيين مهمين يجب تقريرهما إذ نحن نبحث منهجية التربية الدعوية:

* **المعنى الأول:** أن الإخلاص وتمام التجرد وعمق الانفعال مع القضية، والبراءة من

الأجر الدنيوى: عوامل رئيسة فى تقوية أثر كلام الداعية فى بقية إخوانه وفى الناس عمومًا، وكلما كان الداعية أكثر اندماجًا مع موضوع كلامه، مفرغًا أرجاء قلبه كلها له: كان نفاذه إلى قلوب سامعيه أبعد، حتى لو لم يكن ظاهر الفصاحة، وحتى لو كان يدندن حول جمل تالدة قد حفظها الناس من قبل، فتكرار الأذان خمس مرات فى اليوم من عدة مساجد لعشرات السنين تجعل أكثر المسلمين يستقبلونه إذا نودى به استقبالا عاديًّا وببرود ربما، ولا يلتفت إلى معانيه العظيمة إلا قلة من المسلمين الذين عمرت قلوبهم بمعانى الإيمان والفقه عمرانًا واسعًا، ولكن إخلاص المختار الحاج أحمد وتزيّنه بالحسنات: جعل من كلمات أذانه دروسًا كافية لوحدها، وبلاغًا لشباب جامعى يعيشون الزمن الصعب وسلبيات التخليط والاختلاط، وعلى منهجية التربية الدعوية أن تُدرك مغزى هذه الظاهرة، وأن تعمل على إبقاء تعليم الإخلاص وأمثاله من المنازل الأولى فى مدارج الصاعدين هدفًا دائمًا ومصاحبًا لجميع مراحل وجزئيات منهج التربية الدعوية، ليتبارك القول الدعوى مهما كان بسيطًا لم تجمّله فنون البديع، وساكنًا لم ينفضه تجديد.

* **والمعنى الثانى:** أن الدعوة القديمة الراسخة التى تعاقبت على القيام بأمورها أجيال عديدة من الدعاة: يُكوّن الله لها كيانًا معنويًّا عاطفيًّا عميق التأثير فى قلوب الدعاة والناس، فيه بركة تجعل القليل كثيرًا، والواطئ عاليًا، والضيّق واسعًا، والصلد ناطقًا، كمثل مسجد حسين باشا هذا، وليس لمنهج التربية الدعوية فرصة تأثير كبيرة إن طُبّق فى دار حديثة التشييد، جديدة الاسم والرجال والأعراف والتجارب، بل يلزم أن ينطلق تطبيق هذا المنهج المتكامل من بناء دعوى ضربت جذوره عُمقًا، وجلس دعاته من قبلُ بين يدى جيل أكبر، فيتم التلقين وتحميل التبعة والأمانة والفهم، فى توريث هادئ مسترسل غير مشوب بقضاء قاضٍ، ولا صاحَبَه صخب نزاع الوارثين، فيكون اتصال السند والنَّسَب، ومن يتجاوز من الدعاة الجدد فيظن أن التجديد الخططى يستلزم كيانًا جديدًا مستقلًّا فإنه يكون قد أبعدَ فى الوهم، إذ سوف لا تلامس البركة كيانَه الطارئ، ويحرمه من أنفاس المتعاقبين العطرة.

## بومضات الفكر الاجتهادى تتطور منهجيتنا

وإذا عرفنا ذلك، وأوجدت تربيتنا بفضل الله تعالى الكتلة الإيمانية المستندة إلى الكيان العريق: فإن الطرف الثالث فى إتقان الأمر وتطويره يكون هو الداعية الوارث للأمانة الذى أفلحت التربية فى إنتاجه وتعليمه الوفاء، بأن يتصدى ويحمل الهمّ، ويكثر التفكير، ليكتشف مستلزمات الارتقاء والإيغال فى الدرب.

حمل همّ التفكير هذا هو نقطة البداية الإبداعية.

وورد فى شعر امرئ القيس وصف مجازى على عادة الشعراء لرجل:

«قليل هموم...... ما يبيت بأوحال»

أى ليس يخاف، وهمومه تكاد أن تنعدم، وجعل ذلك وصف مدح.

لكن لم يقل لنا أين مكان هذا فى دائرة الحياة؟ وأين عنوانه؟

والأمر لا يعدو أن يكون مجازًا وخيالاً، أو يكون وصفًا لمتخلف عن صراع الحياة ترك المعالى لغيره ورضى أن يُقاد.

أما حياتك وحياة كل حُرّ مصلح يريد أن يقود الحياة فكلها هموم ثقيلة، ومسئوليات ورهبة، وتأمل عميق فى محركات الحياة.

نعم يصح الرجاء، وتنبغى الرغبة، فإن الله تعالى وكيل المؤمنين، لكن من بعد أن تنهكك الأوجال، وتعصرك الحاجات، وتذيبك الأشواق.

تدخل الكير أولاً.. إذا أردت أن تستحيل ذهبًا.

وقد قالت الحكماء: «اعلموا أن أقدامكم إن لم تتقدم بكم، فإن أيديكم لن تَمُدَّ بكم»(1).

أى أن الشىء البعيد لن تتناوشه واقفًا مهما مددت يدك وأطلتها وحاولت، ولكن الراغب الجادّ: يتقدم ويقترب، فينال ويحوز ويقطف.

إلا أنه الخطو الواعى الذى يسبقه التأمل الهادئ المستعرض لمفاد التجارب، على طريقة عبد الوهاب عزام فى نقد النفس حين تعجّب من الإنسان كيف يُشغل عن نفسه؟

«تتوالى الأيام وهو فى شغل من أعمال نافعة أو ضارة، جليلة أو حقيرة، لا يتلبث حينًا ليسأل نفسه: فيم أنت؟ ولم نهجت هذا المنهج؟ ولم آثرت هذا العمل؟

والذى يدركه فى هذه الشواغل هو ما يخلص إلى عقله وقلبه من خلال هذه الضوضاء المحيطة، والعجاج الثائر، لا يفرغ لتمحيصه، ولا هو مستوح له قلبه وعقله، فهو يسمع ويقرأ، ذاهبًا مع التيار، ويسير ويعمل ماضيًا مع الركب.

وإذا خلا الإنسان إلى نفسه، ونفى عن سمعه وعينه حينًا ما يشغلهما كل حين من الأصوات والمرائى، وسمع قلبه فى سكون اليل وهدأة السَحَر: فعسى أن يفقه فى ساعة ما لا

(1) لطف التدابير للإسكافي / 4 .

obeikandl.com

يفقه فى أيام، بل يُدرك فى لمحة ما لم يدرك فى سنين، وعسى أن تتنزل عليه فى هذه الخلوة من المعانى ما لم يخطر له، وما يحسب أنه بعيد عنه» (1).

وهذا الكتاب هو مجموعة خواطر وتأملات وردت إلى قلبى حين ابتعدت عن الضوضاء والعجاج لتمحيص ما هنالك من رصيد دعوى وذخيرة تجريبية وخلجات ضمائر فاه بها أصحابها خلال حوارى معهم فى جلسات التربية والتعليم فى أكثر من بلد، ولما رتبتها ونظرت لها نظرة إجمالية شاملة: أيقنت أن الدعوة الإسلامية تملك حقائق تربوية كثيرة لم توظفها التوظيف الأمثل فى منهجيتها التربوية، وأن التوظيف إذا تمّ بإذن الله فإنه سيدفع الدعوة إلى الأمام دفعة قوية، ويجعلها تحتكر الساحة.

إذن؛ فإن هذه الآراء التى أعتقد صوابها ليست هى «منهجية التربية الدعوية» الرسمية المعترف بها والمُقرة قياديًّا؛ وإنما هى مقترحات منى لتطويرها وتوسيعها وتجديدها، ويشفع لها أن الخيال فيها قليل، وربما ينحصر فى رؤيتى لما فى «الصناعة» من إيحاء تربوى إيجابى، وأما معظمها فإنها قناعات غرستها المعاناة فى قلوب الدعاة المربين، وتجارب ناجحة فعلية، لكنها محلية أو محدودة لم يُكتب لها التعميم وتحتاج إلى إقرار جماعى لها لتكون ضمن المنهجية التربوية الدعوية، ثم الكثير مما تناولته إنما هو تعديل وتحليل لقضايا تربوية فى المنهج تلقاها الدعاة تلقيًا عُرفيًّا لم يصحبه شرح وتفهيم، فبينتُ وجه الفقه الكامن فيها، ولم أبتدع أصلاً، إلا أن حرصى كان كبيرًا خلال البحث كله على كشف الجانب المنهجى فى المفردات التربوية التى تناولها الحديث، وبيان الخط الجامع الموحد لها فى سياق ونسق منسجم، ويكفى أن يخرج الداعية المربى بمثل هذا الانطباع الكلى والنظر المنهجى الذى يتجاوز التجزىء ويرى مفاصل الارتباط بين المفردات التربوية لأقتنع بأن الكتاب قد حقق غايته.

وقبل عشرين سنة: خطب فينا فضيلة الأستاذ المرشد عمر التلمسانى رحمه الله، فجمع معانى حاسمة وموازين فاصلة فى كلمات قليلة، فقال:

«اعلموا أننا إذا لم نحسن قضية المنهج فستُغتال الدعوة، ولابد من منهج يعلم العلم الموروث عن أهل السنة والجماعة، والفكر الإخوانى هو ما يصدر عن الجماعة، وأما كتابات الكاتبين فهى فكر إسلامى عام».

وأنا اليوم أكثر فهمًا لكلامه هذا، وأعمق استيعابًا لمقصده، ولابد من نخل كلام الدعاة

(1) الشوارد / 214.

openkandl.com

وإهدار النخالة، وكلامى وكلام الآخرين يجب أن يخضع لهذا الميزان وبصرامة، وإلا تكونت مدارس داخل الجماعة تخدش وحدتها الفكرية، إلا أنى أفهم أن فكر الجماعة يجب أن يتطور، والتطور لا يأتى من فراغ، وإنما تدفعه خلفية من الآراء عظيمة الكتلة يدلى بها أهل الفكر من دعاة الجماعة، ونمنحهم حرية فى التأمل والاقتراح والنقد، ثم تتولى عملية الانتقاء اختيار ما يمكن أن يضاف إلى فكر الجماعة ويكون الاعتراف به، وإنما يأتى هذا الكتاب فى سياق الإثراء الفكرى هذا وفى دائرة توسيع الخيارات، بل كل كتبى كذلك، والدرس المهم الذى ينبغى أن لا نغفل عنه فى أمر الفكر بخاصة: أن الاجتهاد ضرورة، والإبداع محرّك، وأن التقليد تراجع، والنمطية قيد، ولذلك يلزم تشجيع الدعاة على البوح بمكنوناتهم، وعلى الحوار، والبحث، والتأليف، ليعمر الفكر الاجتهادى، ووجود الفاصل الانتقائى الذى يصون الفكر الرسمى للجماعة عن أن يختلط به غيره هو الضمانة التى تمنع الخوف من الرأى المرسل وتحوّله إلى مورد للتطوير وإلى مصدر لرؤية الأفق العريض.

وفى صورة الغلاف رمز لداعية متلون بمفردات التربية وخصال الأخلاق والمعرفة، بقى واقفًا شامخًا رغم الموانع، يرنو إلى الأمل فى زمن الظلام، وقد اتضح له الطريق.

وتلك هى اللمسة الجمالية التى أصوغها لقضية منهجية التربية الدعوية.

ثم لكل من يصاحبنى فى الإنصات لهذه النبضات العاطفية واصطياد الومضات العقلية سلام.

**محمد أحمد الراشد**

open-kandil.com